الغريب

قال لي جدي وهو يتذكر إحدى حكاياته: لقد هبط علينا فجأة، لم نعلم له أصلا، ولا نسبا، وكأنما نبتَ من العدم، كأنه جنيٌّ هرب من كتاب ألف ليلة وليلة، بقامته الضخمة، وطوله الفارع كمئذنة، إنه أخرُ سلالة قوم (عاد)، أما وجهه فكأنما قد من صخر به عينان زرقاوان نافذتان، تخترقانك كسيفٍ قاطعٍ وتلقي في قلبك الخوف، وبأنك ستعترف بكل ما تعلم وما لا تعلم، قالوا: إنه أحد قطاع الطرق التائبين، وقال أحدهم: إنه هو الذي قتل تسعةً وتسعين نفسا، وجاء إلينا ليكمل المائة أو المائتين. وقال آخر: إنه الخضر -عليه السلام- جاء يعلمنا شيئا من أمور الدين.. ثم يكمل سفره الدائم. استوطن تلك الزاوية في الحارة، وأصبح هو الإمام المسئول عن إقامة الصلوات، بعدما اختفى (عم وهدان)، الإمام السابق، ولم نجد له أثرا، ولكننا لم نهتم، ومع العهد الجديد وجدنا (جابر) -وهذا اسمه- بدأ يزور أغنياء الحي، أول زيارة كانت للحاج (عبد القادر العطار)، استقبله العطار بتَرحاب وقلق، فلماذا يزوره هذا الغريب؟ وماذا يريد؟ لم يدم اللقاء طويلًا خرج بعدها (جابر) بلا أي تعبير على وجهه، أما وجه الحاج (عبد القادر) فكان مصفرا، ويداه ترتعشان، بعدها بأيام احترقتْ دكانه، ولم يجرؤ على اتهام أحد، ولكننا كنا نعلم من فعلها، ولكن ألسنتنا لم تطاوعنا على قول الحقيقة، وتكررت زيارات (جابر) إلى ميسوري الحال بالحي، فكانوا يلبون رغباته ويطهرون أنفسهم، على حد تعبيره لهم بدفع المال إليه فهو سيوزعه

بالعدل على الفقراء، والمحتاجين، الشيء الغريب أن الفقراء كانوا يزدادون فقرا!

يتذكر جدي أن (جابر) صلى بهم مرة، وهو مخمور ولحن في قراءة الفاتحة، وقال: أنعمت عليكم. ولم يرده أحد. قال جدي: إنه أعاد الصلاة مرة أخرى عندما عاد إلى البيت، وهو يستغفر الله.. كانت أيام سوداء بلون هباب الفُرن! على حد تعبير جدي وفي يوم من الأيام اختفى (جابر) من الحي وكأنه لم يكن. البعض قال: إنه قتل وألقيت جثته في مكان ما. وقال البعض الأخر: إنه عاد إلى قُمْقُمه النحاسي فهو عفريت من الجن. سعل جدي وهو يكمل: نعم هو رحل ولكن بقي الخوف في أعماقنا جمرة متقدة!